معركة ذي قار

كان النُّعمانُ بْنُ المنذرِ مَلِكُ الحِيرَةِ رجلًا كريمًا أَبِيًّا (عزيز النفس) رفضَ أن يُزَوِّجَ بَناتِهِ مِنْ أولادِ كِسرى مَلكِ الفُرسِ لأنَ العربَ والنعمانَ خاصَّةً كانوا يَأْنَفُون (يكرهون ويترفعون) مِن تزويجِ بَناتِهم من الفُرْسِ.

فَلَمَّا عَلِمَ كِسرى بهذا غضبَ غضبًا شديدًا وسكتَ على ذلكَ أَشْهُرًا، وبعدَها بعثَ إلى النُّعمانِ كِتابًا (رسالة) يستدعِيه فيه إليه. وكان النعمانُ قد علمَ بِغَضَبِ كِسرى، وَتَوقَّعَ أن يكونَ كِسرى قد أَعَدَّ خُطَّةً لِلْغَدرِ به.

خرجَ النعمانُ من الحِيرةِ ومعه أهلُهُ وسلاحُهُ، وراحَ يتنقَّلُ بين القبائلِ طالبًا مَعُونَتَهَا للوقوفِ إلى جانبِهِ. فامتنعتِ القبائلُ عن تقديمِ المعونةِ لِلنعمانِ خَوْفًا من بَطْشِ (فَتْك وقوة) كِسرى. وبقي النعمانُ على هذه الحالِ حتى نزلَ في مَكانٍ يُقالُ له «ذو قارٍ». فَأَجارَهُ (استضافه وَحماهُ) هانئُ بْنُ مسعودٍ وَأَكْرَمَهُ. ولكن عَزَّ عليه أن يعيشَ النعمانُ شريدًا بعيدًا عن بلادِهِ وعن مُلْكِهِ، فَأَشارَ عليه أن يَحْمِلَ الهدايا إلى كِسرى ويَطْلُبَ العفوَ منه.

وضع النعمانُ أهلَهُ ومالَهُ وسلاحَهُ أمانةً عندَ هانئِ بْنِ مسعودٍ، ثم سارَ إلى بلادِ فارس لمقابلةِ كِسرى، وعندما وصلَ، أمرَ كسرى بِتَكْبيلِهِ (رَبْطه وتقييده)، وَقِيلَ إِنَّهُ أمرَ بِإلقائِهِ تحتَ أَرْجُلِ الفِيَلَةِ. ثُمَّ

عَيَّنَ كِسرى رَجُلًا آخرَ على الحِيرةِ واسمه إياسَ بْنَ قَبِيصَةَ، وطلبَ منه أن يَجْمَعَ كلَّ ما تَرَكَهُ النُعمانُ بْنُ المنذرِ وَيُرْسِلَهُ إليه.

بعثَ إياسٌ إلى هانئٍ يَأمرُهُ بِاسْمِ كسرى أن يبعثَ إليه ودائعَ النعمان وختمَ رسالتَه مُهَدِّدًا:

- لا تُرْغِمْنِي (لا تضْطَرَّنِي) أن أُرْسِلَ إِليكَ بِالجنودِ لِقَتْلِ رجالِكم وسَبْيِ (أسْر) نِسائكم وأولادِكم.

غير أن هانئَ بْنَ مسعودٍ رفضَ هذا التهديدَ الذي اعتبره مَسًّا بكرامته. وردَّ على إياسٍ قائلًا:

- إن ودائع النعمانِ أمانةٌ عندي والإنسانُ الحُرُّ لا يُسَلِّمُ الأمانةَ إلَّا إلى صاحِبِها.

ولما علمَ كِسرى بجوابِ هانئٍ ثارتْ ثائرتُهُ وامتلأَ غَضَبًا وَأَمَرَ بإرسالِ جيشٍ مِنَ الفُرسِ ومعَهُم بعضُ القبائلِ العربيةِ. وفي هذه الأثناءِ عادَ إياسٌ وأرسلَ إلى هانئٍ رسولًا يُخَيِّرُهُ بين واحدةٍ من ثلاثٍ: إمّا أن يُسَلِّموا ودائعَ النعمانِ، وإمّا أن يَتْرُكُوا ديارَهم، وإمّا أن يحاربوا.

ووقف هانئٌ حائرًا أمامَ هذا التهديدِ وَلَمْ يَدْرِ ماذا يعملُ!

وفي هذه الأثناءِ وصل إليه حنظلةُ العجْليُّ فعرض هانئٌ الأمرَ أمامَ حنظلةَ. فَكَّرَ حنظلةُ قليلًا، ثم قالَ:

- إننا إذا تَرَكْنَا دِيارَنا ورَحَلْنا في الصحراءِ مُتْنا عَطَشًا، وإذا أعطيناهم ودائعَ النعمانِ فلا نسلمُ من غَدْرِهم، يقتلونَ رجالَنا ويَسْبُونَ نساءَنا وأطفالَنا (أي: يأخذونهم أَسْرَى). إن كرامتَنا تَأْبَى علينا أن

نُواجِهَ مثلَ هذا المصيرِ. فَوَاللّٰهِ لَنْ تَطَأَ أقدامُ الفُرْسِ ماءَ «ذي قار» وليس أمامَنا إلا القتال. فنحن إلى جانبِكُم وسنُضَحّي بأرواحِنا دفاعًا عنكم.

وعاد الرسولُ إلى إياسٍ يُبلِغُهُ قرارَ هانئ بْنِ مسعودٍ، وفي الصباحِ زحفتْ جيوشُ الفُرسِ نحوَ «ذي قار».

ولما بلغَ النبأُ هانئَ بْنَ مسعودٍ وقفَ خاطبًا في رجالِه:

- أيُّها الرجالُ! إذا كُتِبَ لنا أن نموتَ دفاعًا عن أرضِنا فأهلًا بالموتِ. الموتُ أشرفُ مِنَ الفِرار والنجاةِ، الموتُ ولا العارُ، واستقبالُ الموتِ خيرٌ مِنَ الفِرارِ.

وَدَبَّ الحماسُ في الرجالِ وأقسموا أن يُضَحُّوا بأرواحِهم دفاعًا عن بلدِهم وصاحوا:- ألنارُ ولا العارُ!

وبدأتِ المعركةُ واشتبكَ الفريقانِ عند ماءِ «ذي قار» وكانت معركةً عنيفةً. واستبسلَ العربُ (أظهروا شجاعة) في مُقاتلةِ الفرسِ، وبدأ الفرسُ يَتَقَهْقَرُونَ وقبائلُ بَكْرٍ تندفعُ نحوهم وتلاحقُهم وتَفْتِكُ بهم. وانتهت معركةُ «ذي قار» بانتصارِ العربِ وهزيمةِ الفرس.